القيمة السامية للدّعاء



الدّعاء هو التعبير الحيّ عن شعور الإنسان بحاجته الدائمة إلى الله في جميع أُموره، واعترافه الخاضع بصفة العبودية التي تتمثّل في الإحساس بالارتباط العميق بالله والفناء فيه، بحيث لا يحسّ معه بوجوده ولا يشعره بكيانه. ومن البديهي أنّ الإيمان الحيّ لا يتحقّق بدون هذا الشعور وهذا الإحساس، إذ لا معنى للإيمان بالله إلّا بالإحساس بالقدرة الخالقة التي لا تقف عند حدّ، والقوّة المطلقة التي لا تنتهي إلى غاية، في مقابل عجز الإنسان وضعفه الذي لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً إلّا بالله.

وعلى ضوء هذا، فإنّ حاجتنا إلى الدّعاء تتمثّل في حاجتنا إلى التعبير عن هذا الإيمان، والعمل على استمراره داخل النفس حيّاً نابضاً بالحياة، يجدّد للإنسان إيمانه ويركّز ثقته بالله. ولهذا ورد في الحديث «أنّ الدعاء مخّ العبادة» لأنّه التعبير الحيّ عن معنى العبودية والخضوع والخشوع الذي يتمثّل في العبادة، بدونه تصبح العبادة جسداً لا روح فيه. وبذلك يخرج الدّعاء عن أن يكون طقساً تقليدياً يمارسه الإنسان بدون فهم ووعي، بل بفعل العادة الدائبة. تلك هي بداية الدّعاء في مفهوم الأديان التي التقت كلّها في تقديس الدّعاء وإعطائه هذه الأهمية عندما التقت في تأكيد الإيمان بالله، وقد نصّ القرآن الكريم على دعاء نوح وإبراهيم وموسى وأيّوب وزكريا وغيرهم في ساعات الحرج

والضيّ ِق، وفي حالات الابتهال والانقطاع، كأسلوب عملي يوحي للناس بقيمة هذه العبادة في علاقة المرء بربّه، وبأصالاتها في مفهوم الإيمان، حتى في حياة الأنبياء الذين يمثّ ِلون القمة الإنسانية في القرب إلى ا تعالى.

انطلق القرآن الكريم بعد ذلك ليؤكّ ِد هذه العبارة في جميع حالات الإنسان، حتى لا تكون علاقة الإنسان با علاقة منفعة مادّية، فنراه في الوقت الذي يحثّ ُ الإنسان على أن يدعوه خوفاً وطمعاً، يطلب منه من آية أخرى أن يدعوه مخلصاً له الدّ ِين، في دعاء الإخلاص والتوحيد الخالص. ويشير في بعض الآيات إلى نماذج من الناس لا يعرفون الدعاء إلّا في أوقات الشدة حتى إذا كشف ا عنهم ذلك نسوا ا (وَ ِإذَا مَسّ َ الإنْسَانَ ضُرّ ٌ دَعَا رَبّ َهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمّ َ إِذَا خَوّ َلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ) (الزّمر/ 8).

إنّ الدّ ُعاء في محتواه أساساً علاقة وطيدة متينة بين العبد وربّه، يقف العبد فيها بين يدي مولاه في كلّ مكان وكلّ حال يدعوه ويناجيه ويشكو إليه ويخاطبه بكلّ خلجات قلبه وجوارحه وبالمقابل يتلطّف المولى الكريم الغني عن عبده خالق العبد ومحييه ومغنيه يتلطّف هذا المولى الرحيم فيغدق على عبده من مننه وعطاياه ما يسعده في الدّ ُنيا والآخرة. أي وسيلة أفضل من هذه الوسيلة في تربية الإنسان وإصلاح أمره؟ وأي أداة تربوية قادرة على إعطاء مثل هذا الشدّ العميق المحكم للإنسان نحو ربّه ومولاه؟ ولذا وصف رسول ا (صلى ا عليه وآله وسلم) الدّ ُعاء بقوله: «أفضل العبادة الدعاء وإذا أذن ا لعبد بالدّ ُعاء فتح له أبواب الرحمة».

إن رمضان شهر الدّ ُعاء وشهر الإجابة وشهر التوبة والقبول، ومما يبين مكانة الدّ ُعاء وعلو شأنه في شهر الصيام قوله تعالى في سورة البقرة: (وَ ِإذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّ ِي فَ ِإنّ ِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّ َاعِ ِ إِذَا دَعَانِ ِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلّ َهُمْ يَرْشُدُونَ) (آية 186) قد جاء متخللاً لآيات الصيام وفي أثنائها، فقبل هذه الآية قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الّ َذِي أُنْزِلَ فِيهِ ِ الْقُرْآنُ) وبعدها قوله تعالى: (أُحِلّ َ لَكُمْ لَيْلَةَ الصّ ِيَامِ ِ الرّ َفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)، فجاءت هذه الآية الكريمة وهي مختصة بالدّ ُعاء متوسطة لآيات الصيام ومحفوفة بها ولعل في ذلك ما يدل على عظم قدر الدّ ُعاء وأهميته في هذا الشهر الفضيل، لأن العبد في هذا الشهر المبارك يملؤه الرجاء أن يوفقه ا للقيام بحق ا في هذا الشهر على أتم الوجوه وأكملها، ولا سبيل له إلى ذلك إلا بسؤال ا ودعائه، وهو كذلك يكثِر في هذا الشهر من الطاعات والعبادات وهو يرغب أن يتقبلها ا.